تمثلات الأنا في شعر البهاء زهير

أ.م.د. شروق حيدر فليح
مقر وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

المقدمة :

الشعر تعبير صادق ، وتركيب لغوي معقد البناء ، وتشكيل بنائي محكم ، يستطيع الشاعر من خلاله الكشف عن موهبته الخاصة التي تميزه عن غيره من الشعراء ، وفي قبالة ذلك ، عملية إبداعية ، تمزج الواقع بالخيال ، والواقع بالواقعية ، بطريقة فنية ، تجمع المنفعة بالمتعة ، ومنهم من يرى أن الشعر نزوع ذاتي شعوري ، يعبر عن تطلعات الأنا إزاء الآخر المتعدد المختلف ، فالشعر هو الأنا الناطقة ، التي تحاول أن تزيح الهم وتكشف عن المشاعر وتعبر عن العواطف بلغة الأنا تلك ، والبحث هنا هو محاولة لرصد وكشف وتحليل (**الأنا**) في شعر (**البهاء زهير**) ، الذي يعد من أهم شعراء مصر في القرن السابع الهجري ، شاعر استطاع أن ينحو بالكلمة منحى جماليا ، فكان من فضلاء عصره وأحسنهم نظما، والبحث يسلط الضوء على تمثلات الذات / الأنا في شعره (بناء وتمثلا وخلقا) ، محاولين ربطها – بطريقة فنية – وعملية خلق الصور الشعرية بتجلياتها الحسية المدركة ، لذا يعد النص الشعري حاوياً لتجليات متعددة ، لها حضور فاعل في عملية خلقه ، تعمل تلك التجليات معاً ومن بين أهم تلك التجليات هو (الأنا) ، فالشعر قبل كل شيء وسيلة وغاية في الوقت نفسه ، وسيلة كون الإنسان اتخذه وسيلة وأداة للكشف عن ذاته الشاكية وعن ذاته المتعالية ، وعن كل ما ينتابها من مشاعر وأحاسيس والشعر بوصف منجزاً ابداعياً يكشف عن هم الذات ، عن صراعها مع نفسها ومع الآخر ، وحينما نقول غاية فهذا يعني إن الشاعر غايته في نظمه للشعر تكمل في التأثير في المتلقي وإحداث الدهشة من خلال كسر أفق التوقع.

الكلمات المفاتيح : (التمثّل) ، (الأنا) ، (الشعر) ، (البهاء زهير) .

tamathulat al'ana fi shier albaha' zuhayr

alshier taebir sadiq , watarkib lughawiun mueaqad albina' , watashkil binayiy muhkam , yastatie alshaaeir min khilalih alkashf ean mawhibatih alkhasat alati tumayizuh ean ghayrih min alshueara' , wafi qubalat dhalik , eamaliat 'iibdaeiat , tamzuj alwaqie bialkhayal , walwaqie bialwaqieiat , bitariqat faniyat , tajmae almanfaeat bialmuteat , waminhum man yaraa 'ana alshier nuzue dhatiun shueuriun , yueabir ean tatalueat al'ana 'iiza' alakhir almutaeadid almukhtalif , falshier hu al'ana alnaatiqat , alati tuhawil 'an tuzih alhama watakshif ean almashaeir watueabir ean aleawatif bilughat al'ana tilk , walbahth huna hu muhawalat lirasd wakashf watahlil (al'ana) fi shier (albaha' zuhayr)

المبحث الأول : مفهوم الأنا في الدرس النقدي الأدبي :

لم يكن الأدب مجرد وسيلة للتعبير عمّا يجيش في النفس الإنسانية، أن انفعالات ومشاعر، في مواجهتها الدائمة مع مظاهر العالم الخارجي وأحداثه، فحسب، بل هو طريقة لممارسة الحياة، ومفتاح للدخول إلى أعماقها وجسر لوصل ما انقطع من وشائج بين الإنسان و الوجود منذ أن ظهر الإنسان بوصفه كائناً مستقلاً في هذا العالم ولا شكّ أن هذه الرؤية للأدب، هي وحدها التي تستطيع تفسير ذلك التلازم العجيب بين وجود الإنسان، وممارسته لهذا الفن السحري [1] القائم على تصوير ما تجيش به النفس من مشاعر وأحاسيس ، يسعى الشاعر من خلاله إلى تصوير ما هو داخلي (الأنا) وما هو خارجي (الواقع) ، وهو بين الأنا والواقع يحاول أن يرسم الحدود ويحدد المواقف ، وكل ذلك يسهم في خلق الصور الشعرية وإعادة تشكيلها من جديد ومن خلال (الأنا) يمكن أن تبنى

الصورة المجازية بوصفها عنصرًا بنائيًّا بالغ الأهمية في بنية النص الشعري، وهي تجيء في قمة الهرم البنائي للقصيدة الشعرية، ذلك الذي يبدأ من البنية الصوتية ومرورًا بالبنى الصرفية والمعجمية والتركيبية؛ ولذلك كانت دراسة الأنا في النص الشعري من الأهمية بمكان وهي دراسة تتوخى الإشارة إلى مفهومها وأهميتها ووظيفتها التي لا تقف عند حد الدور البنائي في النص الشعري، وإنما تتعداه إلى التمايز بين الشعراء في كيفية بنائها بوصفها عنصرًا حيويًّا من عناصر التكوين النفسي للتجربة الشعرية [2]

فالشعر يُتَخذ وسيلة للتعبير عن الأنا ((كونه معبراً عن الذات ، وأنَّه يمثل مع التجربة كلاً متماسكاً يكاد يكون فيه الأسلوب بصمةً لصاحبه ، حتى انه ليتعذر علينا الفصل بينهما ، بل إنَّ الأسلوب قد يكتسب قوته من طبيعة الشخصية التي استخدمته)) [3]

إن علاقة المنشئ بنتاجه الأدبي تمثل علاقة اندماج وانصهار ، إذْ يحول صاحب النص دواخل نفسه المضمرة بين جنبات نفسه وحنايا فؤاده وهي مجسّدة لـ (الأنا) إلى بنية لغوية في هيأة حدث كلامي ، وعلى وفق علاقة نظمية قائمة على قوانين اللغة وأسسها ، ومستثمرة إمكاناتها البلاغية الجمالية المتولدة من خصائص اللغة نفسها أو من طبيعة تراكيبها . ومن المعلوم لدى الباحثين إشارات علماء البلاغة واللغة إلى مسألة كيفية بناء النص ، وما تستلزمه تلك العملية من خصائص ذاتية في اللغة ، وأخرى إبداعية نابعة من كفاءة المبدع المُعبَّر عنها بالموهبة المدعمة بثقافة مكتسبة ، وهو ما عُــرف بنظريــة النظم في مختلف أنواعه [4] لذلك كان النص الشعري نصاً مبنياً على وفق نظام أسلوبي خاص ، وهذه الخصوصية جعلت من الباحثين يطيلون الوقوف قديماً وحديثاً عنده نقداً وشرحاً وتوصيفاً بناءً على معطيات البناء والصورة والتشكيل فضلاً عن محددات الرصف والصيرورة ، ومن هنا كان النص الشعري نصاً قابلاً للتأويل والتجلي ، ويدخل في عملية الخلق والتشكيل طرفان لا ثالث لهما ، الأول الأنا الشاعرة والثاني الآخر المتلقي وفي خلال عملية التفاعل تكون الدهشة وتحقق الجمالية داخل النص لذا فإن حضور الآخر في النصوص الأدبية كان ضرورة من ضرورات

وجود الذات الشعرية في مراحل تطور النص الأدبي ، في ظل هذا الاقتران الموضوعي بين الآخر وما ينظمه الشاعر من أغراض وموضوعات [5].

المبحث الثاني : الأنا المعاتبة :

كثير من الشعراء اتخذوا من الشعر وسيلة عن للكشف العاطفي والتحليل الانفعالي ، ووسيلة عن تصوير العتاب ، حرقة وشوقا ولوعة ، من خلال نسيج شعري لغوي يوصف بالخاص ، راسمين صورة شعرية فيها مشاعر وأحاسيس المعاتب المحب ، وهذا يعني أن ((الصورة تشكيل لغوي يكونها خيال الفنان من معطيات متعددة، يقف العالم المحسوس في مقدمتها، فأغلب الصور مستمدة من الحواس إلى جانب ما لا يمكن إغفاله من الصور النفسية والعقلية وإن كانت لا تأتي بكثرة الصور الحسية)) [6]

ومن نماذج (**الأنا المعاتبة**) في شعر (البهاء زهير) قوله :

تعالوا بنا نطوي الحديث الذي جرى فلا سمع الواشي بذاك ولا درى (الطويل)

تعالوا بنا حتى نعـــود الى الرّصا وحتـــى كأن العـهد لن يتغيّرا

ولا تذكروا ذاك الذي كان بـــيننا علـــى أنه ما كان ذنب فيذكرا

نسيتم لنا الغدر الذي كان مـــنكم فـلا آخذ الرحمن من كان أغدرا

سأذكر إحسانا تقـــــــدّم منكم ويصـــفو لنا عيشنا ما تكدرا [7]

تعد الصورة الفنية أساس الخلق الشعري، فهي تشكيل جمالي ونفسي يتكون مما التقطته حواس الشاعر المبدع من مدركات حسية أو معنوية، بحسب طبيعة تأثره بها، حتى يمكن أن نطلّ منها على الباعث النفسي المتواري خلف ألفاظ القصيدة ومكوناتها الفنية وأسسها البنائية ومهيمناتها الأسلوبية ، وما تركته التجارب والمشاهد التي رافقت حياة الشاعر من آثار عميقة الغور في وجدانه، فتتدفق احساساته

بصياغات جمالية محسوسة ومشحونة بعاطفة تستجيب لها نفس المتلقي على نحو تلقائي لتلمس انفعالات الشاعر وخلجات نفسه المعبرة عن نبوغه الفني وعبقريته الشعرية الفذّة عن طريق ربط الخيال بالصورة [8]

ومن نماذج الأنا المعتبة قوله :

حبيبـــيَّ ما هذا الجفاء الذي أرى وأين التـــــغاضي بينا والتعطّفُ (البحر الطويل)

لك اليوم أمرٌ لا أشكّ يرينـــــــي فما وجهك الوجه الذي كنت أعرفُ

لقد نقل الواشون عنـّـــي باطلا وملت لما قالوا فـــزادوا وأسرفوا

كأنك قد صدمت في حـــــديثهم وحاشاك مـــن هذا فخلقك أشرفُ

وقد كان قول الناس في الناس قبلنا ففُنّد يـــــــعقوب وسّق يوسفُ

فإن كان قولا صح أني قلتـــــهُ فللقول تأويـــــل وللقول مصرفُ

وهب أنه قـــــول من الله منزلٌ فقد بدل التـــــوراةَ قومٌ وحرّفوا

وهنا أنا واواشي وأنت جـــميعنا يكون لنا يـــــــوم عظيم وموقفُ [9]

في هذه الابيات الشعرية جاء تصوير (الأنا المعاتبة) لتكون جزءاً مهماً من تجربة الشاعر الشعورية ، تظهر فيها قدرة الشاعر الفنية والجمالية ، يشترك في رسمها عناصر الصوت والدلالة واللون فضلا عن الحركة ، وبذلك تكون الصورة الفنية تشكيلاً جمالياً يتكون من مجموعة عناصر ، وهي تقاطع لمجموعة من العلاقات التعبيرية والفنية وتعكس من خلال اتحاد عناصرها الذاتية والموضوعية وتداخلها وتكاملها صور الفرد او الجماعة وتتكشف من خلال تكثيفها التجربة الذاتية للشاعر وتجسيدها لتجارب متعددة ذات عمق إنساني وتاريخي [10] فالأنا هنا جاءت معاتبة لذلك الحبيب الذي دخل الواشون بينهما ، فكان الفراق وحدث الانقطاع ، عبّر عن ذلك الشاعر بلغة عتاب حزينة ، محاولا

فيها إظهار الحزن والشفيف ، فالأبيات رسمت صورة المعاتب الذي يمزج العاطفة بالشعور ، والواقع بالخيال ، فالعتاب هو ((ميل فطري عند الإنسان ، يلجأ إليه عند الشعور بالألم أو الحزن أو اليأس وما يرافق ذلك من إحساس بالاضطهاد أو الطغيان أو الظلم أو الاضطراب في الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية ويخرج الإنسان هذا الشعور لدفع الظلم الواقع عليه من الأفراد والمجتمع))[11]

ومنه قوله :

أعاتبكم يا أهل ودّى وقـــــد بدت دلائل صدٍّ منكم ومـــــــــلال (البحر الطويل)

وأعذركم تـــــــــثقّلت حتى مللتم وأسرفتم في هـــجرى المتوالي

فهوّني مـــــــن كان عندي مكرّما وأرخصني من كان عندي غالي

ليسلم ذاك الودُّ بينـــــــــي وبينكم ولســتُ على شيء سواه أبالي

ويأتيكم ما عـــــــشت يا آل كامل سلامي عليـــكم دائما وسؤالي

ومن عجب عتبي على الحسن الذي لديَّ وعـــــندي جوده المتوالي

ولكن بدا منـــــــــــه جفاء فاءني وذلك شـــــــيءٌ لم يمرُّ ببالي [12]

تمثلت (**الأنا المعاتبة**) بصيغة فنية جمع فيها الشاعر الحس المرهف بالعتاب الشفيف الرقيق ، فالألفاظ جاءت رقيقة ، والصورة حيّة نابضة بالحزن ، فالعتاب جاء هنا للجماعة (آل كامل) الذي انقطعت سبل الود والاتصال بهم لأسباب لم يعلن عنها الشاعر ، فالشاعر يعب عليهم إسرافهم في الجهر والبعد ، بيد أنه لم يقطع الوصل بهم البتة ، بل كان يبعث رسائل الشوق والسلام على الرغم من هجرهم إياه ، فالجفاء والهجران لم يمنعا الشاعر من ديمومة الوصل والوئام .

ثالثا: الأنا الحكيمة :

يرتب الشاعر معانيه في النفس أنغاماً يصوغ بها معنى الوجود ، يصبح بذاته ذاتاً كونية بالنتيجة، محاولة لخلق الجميل والأجمل، الذي يعزّز منظومة الفضائل الإنسانية، وهذه الذات قد تنشطر على

نفسها، ما بين الذات المبدعة المتجلية في حالة المحاكاة (الخلق والإبداع) والذات الشخصية الاجتماعية، بعيدا عن عالم الإبداع، كل هذا في لحظة من الوقت [13] والحكمة من الموضوعات الشعرية القديمة التي رافقت نشأة الشعر في عصوره السحيقة ، تقوم على أساس تقديم الخبرة والمعرفية على صورة حكم الغاية منها نقل تلك التجربة الى الآخر بغية إحداث نوع من التحول على مستوى الفرد أو المجتمع على مستوى السلوك والأفعال ، فهي خلاصة تجربة حياتية ومعاناة اجتماعية يعرضها صاحبها بصورة موجزة ودقيقة [14] لذلك قيل عن الحكمة هي ((كل ما يهدي إلى الخير في العقيدة والسلوك، فهو حكمة))[15]

أما الشاعر البهاء زهير ، فقد تضمنت أشعاره حكماً ، عكست عمق التجربة الحياتية عنده ، تجارب حية مستمدة من الواقع المعيش ، قسم منها يتعلق بتوجيه السلوك البشري وطبيعة التعامل وقسم منها يتعلق بتفسير الوجود حيث طبيعة الحياة والظواهر الطبيعية ، وقسم منها يتعلق فلسفة الشاعر نفسه ، إذ يقوم بعرضها للمتلقي الآخر وصوغها شعراً على أنه حكمة مسلم بها ، أو يقوم الشاعر بنقد المنظومة الاجتماعية ، ومن نماذج (الأنا الحكيمة) في شعر (البهاء زهير) قوله :

ما أصـــــعب الحاجة للناس فالغنم منهم راحة الياس (بحر السريع)

لم يبق في الناس مواسٍ لمن يُظهر شـــكواه ولا آس

وبعد ذا مالك عنهم غـــــنى ولابدّ للناس مـن الناس [16]

بنى الشاعر هذه الأبيات الثلاثة ، بناء فنيا محكما ، حاول فيه بث التجربة الحياتية ، فصيّرها حكمة ، فالشاعر يتبرم من سؤال الناس ، لأن فيه ذلة وخضوعا ، فالناس ما عادوا كما كانوا ، فلا خلّ ولا مواس ولا عضيد ، مما جعله يتبرم من واقعه المعيش ، فيرى أنه لا بد أن يكون الناس للناس ، متعاونين متحابين ، مدركا الشاعر في ذلك كله أن بنيّة النص الشعري تمثل آلية فنية شديدة المرونة والتعقيد معا، وامكاناتها المتنوعة في حمل المعلومة ، ونقلها تبلغ من التكثيف والاكتمال حداً لا يمكن أن يقارن به في هذا المقام

أي ابداع ، أخر تصنعه يد الانسان ، فهي تمتلك ((القدرة على تنظيم نفسها بما يحفظ لها وحدتها ، ويضمن لها البقاء ، ويُحقق شكلاً من الانغلاق الذّاتي، والبنية بهذا التصور لا تحتاج إلى سلطان خارجي لتحريكها))[17]

ومن النماذج الأخرى للأنا الحكيمة في شعر (البهاء زهير) قوله :

لا تطرح خامل الرجال فقد تـــضطرّ يوما إلى أرادته (البحر المنسرح)

فإليك في النرد وهو محتقرٌ خير من الشيش عند حاجته [18]

قدّم الشاعر حكمة هنا ، عبر أسلوب إنشائي / النهي (لا تطرح) ، مشكلا خطابا حاويا على حكمة تجربة حياتية ، فهو يرى أنك تحتاج كل الناس ، إذ تحتاج الرجل الخامل في يوم ما ، فجعله في قبالة (النرد) ، الذي يراد منه الشخص الفرد ، فالنرد قد يكون أفضل من (الشيش) الجماعة في موقف ما ، فالحاكمية للموقف المخلص .))[19] فهناك مستويات يخضع لها الشاعر كي يحقق رؤيته البنيويّة من خلال الآليات المحفزة في تنشيط فاعلية الدلالة التي تشغل فيها اللّغة مكانتها الجوهرية في تشكيل روح المبنى الشعري بحسب أتجاه الشاعر وقدراته الفنية والتعبيرية عند تكوينه قصيدة متكاملة العناصر ذات بناء ونظام يخضع لواقعيتها الفردية التي يعبر بها الشاعر عن رؤيته وتجربته الجديدة بامتداد منبع الفكرة من ((الأشكال الشعرية أو اللّغة الجديدة وكل جديد تكتنز به القصيدة لا يكون في بداية الأمر هدفاً من أهداف الشاعر، بل إنه يولد من خلال المعاناة والتعبير عن التجربة الشعرية))[20]

ومنه قوله :

لا تعتب الدهر في حال رماك به إن اســـــتردّ فقِدْما طالبا وهبا (البحر البسيط)

حاسب زمانك في حالي تـصرّفه تجده أعطاك أضعاف الذي سلبا

والله قـــــد جــعل الأيام دائرة فلا تـــرى راحة تبقى ولا تعبا

ورأس مالك هي الروح قد سلمت لا تأسفنّ لشـــــيء بعدها ذهبا

وربّ مال نما من بـــــعد مرزئة أما تـرى الشمع بعد القطّ ملتهبا [21]

فالأنا الحكيمة كشفت أن ((العمل الأدبي وحدة متكاملة يمتزج فيها عدد من العناصر الفنية والإبداعية في نسق لغوي معين، محققة بذلك التمازج نصًا إبداعيًا يجمع بين الفكرة والجمالية، وهذه العناصر هي: اللغة التي تميز العمل الأدبي عن غيره من الأعمال الإبداعية كالأعمال الموسيقية والتصويرية وتعد الأساس الذي يضم سائر عناصر العمل الأدبي ويوحد بينها، كما تُميّز كل عمل أدبي من غيره فاللغة في فن الشعر تختلف عنها في الخطابة وتختلف أيضًا عنها فن القصة والرواية وغيرها)) [22]

المبحث الثالث : الأنا الواصفة :

قبل الحديث عن (الأنا) الواصفة علينا أن نعي ماذا يراد من الوصف ، إذ يعرف الوصف بأنه ((تمثيل الأشياء أو الحالات، أو المواقف، أو الأحداث، في وجودها ووظيفتها)) [23]، فهو البيان الظاهري للأشخاص أو الأشياء بصدد معرفتها بالصورة الواضحة، أي ((عرض وتقديم الأشياء والكائنات والحوادث المجردة من الغاية والقصد في وجودها المكاني)) [24] فالأنا الواصفة تقوم بتقديم وصف جمالي فني بواسطة حاسة البصر ، منتجا صورة بصرية ، هي الصورة التي تعتمد على حاسة البصر وما تلتقطه من مشاهد لتوظفه في فضاءات خيالية متسعة ، ويمكن القول أن الصور البصرية هي اكثر انواع الصور الحسية في اعتمادها على تجسيد المعاني واختزال المقاصد [25] بمعنى أن يكون البصر أداة فاعلة في تشكيل الصورة الشعرية على وفق ما تدركه العين الباصرة من مشاهد ، فتعمل على تشكيل معنى شعري بوساطة اللغة ، تتميز هذه الصورة من التحويل على حاسة البصر التي تقع عليها

الرؤية البصرية لخلق صورة مشحونة بخيال المنتج، والرؤى في تحريك حسّ المتلقي وشعوره الذاتي، من خلال وجود الأنساق الصورية ذات الوظائف الفاعلة في بنية النص لخلق الصورة البصرية، لأن هدفها اكتشاف وحضور وإقناع وتأثير، فضلاً عن كونها معادلاً موضوعيًا بالنسبة للشاعر[26] فالوصف لون من الألوان الشّعريّة المرتبط بأغراض متعددة ومتداخل معها و((الوصف إنما هو ذكر الشيءِ بما فيه من الأَحوال والهيئات))[27] ، وقد وصف الشّعراء الطبيعة القرويّة الّتي تنبع وتتفجر منها مكامن الجمال بوصفها ملمحاً للحياة البديعيّة القائمة على تعدد ألوانها . ويعرف الوصف بأنه ((مثيل الأشياء أو الحالات، أو المواقف، أو الأحداث، في وجودها ووظيفتها))،[28] فهو البيان الظاهري للأشخاص أو الأشياء بصدد معرفتها بالصورة الواضحة، أي «عرض وتقديم الأشياء والكائنات والحوادث المجردة من الغاية والقصد في وجودها المكاني)) .[29]

ومن الأمثلة على الأنا الواصفة قول (البهاء زهير) :

رقّ في الجـــوّ النسيم فتفـــــضّل يا نديم (مجزوء الرمل)

ما ترى كيف أمّحت من حُلّةِ الليل رقـــــوم

وكأن الفجر نـــــــهرٌ غرقت فـيه النـــجوم

فأجلْ بالصـــهباء ليلا بـــقـيت منه رسوم

واسبق الشمس بشمـــ س ِ لا تواريها الغيوم [30]

قدّم الشاعر توصيفا جميلا قائما على تفعيل الحاسة البصرية ، فقدّم صورة بصرية للطبيعة من (**جو ونسيم وفجر ولليل وتجوم وشمس وغيوم**) ، حاول الشاعر من خلالها ترسيم الصورة وجعلها

متكاملة الأطراف ، فجعل هذه الأشياء كلها بمشهد بصري وفق نسيج لغوي شعري ، معتمدا على حاسة البصر في تشكيل المعنى الشعري ، تشكلت الصورة البصرية في هذه الومضة الشعرية تشكلا قائما على استحضار اللون الأبيض، فجاءت الصورة فيها على صورة لوحة تشكيلية ، فالصورة هنا صورة بصرية حسية ، عرضها في صورة كلية ، فبدأ بوصف النسيم والليل ، ثم شبّه الفجر بالنهر ، وهي صورة تشبيهية ذات بعد حركي حيّ ، فيه مشهد وصفي جميل ، ثم انتقل بانسيابية إلى وصف الخمرة (الصهباء) ، التي تسقى ليلا للندماء ، ثم ختم القصيدة بوصف الشمس التي لا توريها الغيوم .

ومنه قوله :

عشته أهيف قـــد تيـــم قـلبي هيفه ْ (مجزوء الرمل)

أحسن خلـــق الله ما ينـصفه من يصفه ْ

بوجه حسن يزيـــــ ـد كل يوم زخرفه ْ

فم كأن الشهد قـــد خالط مـــنه قرقفه ْ

قد ضاق حتى خـِلته تـــــخرج دالاً ألفه ْ [31]

في هذا النص يخلقُ الشاعر جوّاً تصويرياً حسياً ، أراد من خلاله الشاعر تصوير مشاعره والكشف عن انفعالاته ، فأخذ يقدم تشبيها حسياً مدركا إزاء المرأة المحبوبة ، لقد بني النص الشاعر نصه هنا على وفق رؤية خاصة أراد الشاعر من خلالها رسم صورة حسية للمرأة الجسد، فالشاعر قدّم غزلاً حسياً رقيقاً بي فم حبيبتهِ ، والفم الصغير كما هو معروف من عناصر الجمال لدى المرأة ومن أهم مفاتنها التي تثير الرجل وتحرك مشاعره، فهو هنا يقول لها كيف أصغي إليكِ وأنت تملكين هذا الفم الجميل الصغير، فهو عندما ينظرُ إلى هذا الفم لم يستطيع أن يكون بكامل قواه العقلية وقادر على الاستماع لما تقول، فهذا الفم يكركب حالهُ من جمالهِ .

ومنه قوله في وصف امرأة طويلة سمراء :

وسمراءُ تحكي الرمح لونا وقامة ولها مـــهجتي مبذولة وقيادي (البحر الطويل)

وقد عابها الواشي فقال طويلـــة مقال حـــــــسود مظهر العناد

فقلت له بُشـــــــرِّتْ بالخير إنها حياتي ، فإن طالت فذاك مرادي

نعم أنا أشكو طولها فيـــحقّ لي لقد طال فيها لوعتي وسهادي

وما عابها القدّ الطويل وإنـــــه لأول حـــــسن للمليحة بادي

رأيتُ الحصون الشمّ تحرس أهلها فأعددتـــها حصنا لحفظ ودادي[32]

لقد رسمت الأنا الواصفة صورة شعرية بصرية ، فقد وصف تلك المرأة بالسمراء الطويلة ، ثم أخذ يحاجج الوشاة الذين عابوا عليها ذلك ، فالشاعر يبين أنه معجب بذلك الطول والسمار ، عبره عن ذلك بلغة شعرية واصفة ، مركزا فيها على الجسد ، فالجسد هو سر جمال المرأة ، وبذلك أدرك الشاعر أن فالمرأة لم تكن ((رمزاً للمُتعة، أو ملهاة يبتلى بها الرجل ، بل كانت رمزاً بكل ما هو جليل ومقدس، فهي رمز للأم أو الأخت حينا و الحبيبة ، وللأرض والثورة حينًا آخر ، وهي حينًا ثالثاً يعبر عن ذاتهم المفقودة أو المستترة وهي من قبل هذا وذاك رمزّ للخصوبة والولادة المتجددة ومن قبل هنا فإنّ الشاعر لم يتكئ على جسدها ، أو يسبح في أحلامه الوردية حيالها ، وإنها أتخذ منها ذاتّا أخرى تتصل بأكثر من وشيجة بذاته المُبدعة فمنحها أفضل ما يستطيع من الإجلال ، والإكبار، وكان طيفها الأثيري ماثلاً أمام عينيه ومقيمًا في وجدانه)) [33]

المبحث الرابع : الأنا الحزينة :

يعد الشعر ذلك المنجز الإبداعي إحدى الوسائل الناجعة التي اتخذها الإنسان منذ الخليقة الأولى للتعبير عما يعانيه ويكابده، فضلا عن كونه أداة فاعلة للتعبير عن مكنونات الذات ومعاناة الذات ، ومن هنا كانت ((القصيدة تتسع وتنمو من خلال أطرافها كافة ، وصورها وموسيقاها وتأزمها النفسي))[34] فهي حوار مفتوح يجمع بين الأنا الشعرية والآخر الذي يعيد أنتاجها الدلالي من خلال التمعن بمنظورها

والقراءة المتواصلة ليصنع رؤيته الابداعية في بنية النص الشعري فيربط الأبعاد المضمونية التي تنسجم داخل البنية مع اللغة ، ولا يتم تكامل آليات البنية إلاّ بالصورة المتجسدة التي ترتكز على أنها تجربة خيالية تضفي على سطح البنية عامل الإدهاش والغرابة فهي آلية من آلياتها التي تشكل علاقة تواثقية مع سائر مكونات النص الشعري[35]وبتلاقحها مع الظواهر الثقافية الجديدة، فقد أنتجت انطباعا استراتيجيا وحافزاً مباشراً على فكر الشعراء،((فهي رموز لحالات نفسية هي مادة للفكر))[36] ومرآة تعكس صورة صادقة لشعور الشاعر وأحاسيسه التي يضع من خلالها دوافعه وأهدافه، ومحاكاته لواقعه

ومن نماذج (الأنا) الحزينة في شعر (البهاء زهير) قوله :

يا واحدا ما كان لي غــيره بـــــــعدك وأقلة أنصاري (بحر السريع)

يا منتهى سؤلي ويا مشتكى وحزني ويا حافظ أسراري

الدار بعدك قـــــد أصبحت في وحشة يا مــؤنس الدار

إن كنت قد أصبحت في جنة إنـــــــــي من فقدك في نار

جارك قلبـــــي وقد أحرقته والله أوصى بالجار بالجار [37]

لقد خيم الحزن على جو القصيدة ، فالشاعر يرثي عزيزا عليه ، بينهما صحبة وصداقة وعشرة ، إذ شكّل الفقد صدمة نفسية عند الشاعر ، فالشاعر يشكو ألم الفراق ، فراق المحب ، فتمثلت الأنا بكونها حزينة ، فعبرت عن ذلك الحزن بألفاظ تعكس ذلك الحزن ، فجاءت الصورة مملوءة بالألم والأسى ولوعة الفقد والفراق ، فخاطب ذلك الفقيد بقوله : (**يا واحدا**) و (**يا منتهى سؤلي**) ، (**ويا مشتكى حزني**) ، (**يا حافظاً أسراي**) ، (**يا مــؤنس الدار**) ، فهذه النداءات المتوالية والمكثفة داخل النص ، جعلت الحزن مهيمنا على الصورة الشعرية التي رسمها الشاعر ، بلغة حزينة واجمة ، فضلا عن توظيف الشاعر لتراكيب لغوية خاصة تعبر عن أناه الحزينة مثل قوله : ((**الدار بعدك قد أصبحت**

في وحشة) ، وقوله : ((**إنـّي من فقدك في نار**)) ، وقوله : ((**جارك قلبـــــي وقد أحرقته**)) ، فهذه الجمل الخبرية كشفت عن حزن عميق وأسى دفين ، صيّرها الشاعر صورة شعرية مؤثرة حاول فيها كسر أفق التلقي عند المتلقي.

الخاتمة :

ومما تقدم ، يمكن القول أن (الأنا) في شعر (البهاء زهير) قد تمثلت على وفق صور مختلفة ، وهذا الاختلاف مرده اختلاف الوظيفة ، في حين جاءت الوظيفة الوصفية لتقوم الأنا الوظيفة بهذه المهمة ، وهكذا بالنسبة لبقية الأنواع والتمثلات ومن هنا يمكن أن يعد النص الشعري حاوياً لتجليات متعددة ، لها حضور فاعل في عملية خلقه ، تعمل تلك التجليات معاً ، ومن بين أهم تلك التجليات هو (الأنا) ، فالشعر قبل كل شيء وسيلة وغاية في الوقت نفسه ، وسيلة كون الإنسان اتخذه أداة للكشف ذاته (الأنا) وعن كل ما ينتابها من مشاعر وأحاسيس ، بوصفه منجزاً إبداعياً يكشف عن هم الذات ، عن صراعها مع نفسها ومع الآخر ، وحينما نقول غاية فهذا يعني إن الشاعر غايته في نظمه ، فالنصوص الشعرية تسعى من أجل أن تكمل في التأثير في المتلقي وإحداث الدهشة من خلال كسر أفق التوقع ، لذلك قيل في توصيف الروائي بأنه يعبر عن الحياة كما يحسها من خلال وجدانه ، لهذا كانت وظيفته الأولى التعبير عن الجوانب الوجدانية من نفس الإنسان ، وأسمى درجات الشاعرية وأفعلها في النفوس ، وما كان منها واسع الانفتاح على أعماق الحياة وصادراً عن النشوة الداخلية واللذة الوجدانية ، والشاعر البهاء زهير تنوعت الأنا في شعر بناء على مقتضيات الغرض ومحددات الغاية .

الهوامش :

1- ينظر: في مهب الشعر: مقالات ودراسات، د. نزار بريك هنيدي: 9.
2- جدلية الخفاء والتجلي، د/ كمال أبو ديب: : 19
3- في مهب الشعر: مقالات ودراسات، د. نزار بريك هنيدي : 9.
4- ينظر : المصدر نفسه : 10
5- الآخر في غزل الشعر العراقي 447- 547 هـ ، دراسة تحليلية، د. زينب فاضل أحمد سعيد محمد : 2.
6- الصورة في الشعر العربي حتى اخر القرن الثاني الهجري دراسة في أصولها وتطورها، الدكتور علي البطل : 30.
7- ديوان البهاء زهير : 105
8- ينظر : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ، د. جابر عصفور ،: 14 .
9- ديوان البهاء زهير : 168
10- ينظر : وظائف الصورة الفنية ومهامها ، عبد الله خلف العساف (شبكة الانترنت) .
11- الشكوى في الشعر العربي من النصف الأول من القرن العشرين ، ياسمين أختر ، السعودية : 4
12- ديوان البهاء زهير : 209
13- الشكوى في الشعر العربي من النصف الأول من القرن العشرين ،: 5
14- ينظر: الحكمة في الشعر العربي في العصر العباسي ، محمد عويس: 5

15- ضحى الإسلام، احمد امين: 12
16- ديوان البهاء زهير : 141
17- الحقيقة الشعرية على ضوء المناهج النقديّة المعاصرة والنظريات الشعرية : دراسة في الأصول والمفاهيم ، د . بشير تاوريريت : 31
18- ديوان البهاء زهير : 51
19- الحقيقة الشعرية على ضوء المناهج النقديّة المعاصرة والنظريات الشعرية : دراسة في الأصول والمفاهيم ، د . بشير تاوريريت ، ص31 .
20- قضايا الشعر الحديث ، جهاد فاضل : 211 .
21- ديوان البهاء زهير : 20
22- ينظر : الاستعارة في النقد الحديث ، يوسف أبو العدوس : 110
23- معجم مصطلحات نقد الرواية: د. لطيف زيتوني:172.
24- المصطلح السردي في النقد الحديث ، احمد الخفاجي : 58
25- ينظر : دلالة الصورة الحسية في الشِعر الحسيني ، د. صباح عباس عنوز، :35
26- ينظر: المصدر نفسه : 36 .
27- نقد الشّعر، قدامة بن جعفر:118 .
28- معجم مصطلحات نقد الرواية: 172
29- المصطلح السردي في النقد الحديث: 58
30- ديوان الهاء زهير : 237
31- ديوان الهاء زهير : 170
32- الديوان : 79
33- المعذب في الشعر العراقي الحديث ، لؤي العاني : 4 .
34- كتب وأدباء ، وليم الخازن ، نبيه أليان ، : 87 .
35- ينظر : الصورة والبناء الشعري ، محمد حسن عبدالله :19.
36- النقد الأدبي الحديث ، محمد غنيمي هلال : 41 .
37- ديوان البهاء زهير : 122

المصادر :

الاستعارة في النقد الحديث ، يوسف أبو العدوس ، الأهلية للنشر والتوزيع ، الأردن
جدلية الخفاء والتجلي، د. كمال أبو ديب: دار العلم للملايين ، ط ٤/ ١٩٩٥ م
الحقيقة الشعرية على ضوء المناهج النقديّة المعاصرة والنظريات الشعرية : دراسة في الأصول والمفاهيم ، د . بشير تاوريريت
الحكمة في الشعر العربي في العصر العباسي ، محمد عويس ، مكتبة الانجلو المصرية ، 1986 .
دلالة الصورة الحسية في الشِعر الحسيني ، د. صباح عباس عنوز، مطبعة النجف الأشرف ، 2008
ديوان البهاء زهير ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد طاهر الجبلاوي ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الثالثة ، 2019
الشكوى في الشعر العربي من النصف الأول من القرن العشرين ، اطروحة دكتوراه ، كلية اللغات العربية ، قسم الأدبيات ، ياسمين أختر ، السعودية ، 2010
الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ، د. جابر عصفور ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط3 ، 1992
الصورة في الشعر العربي حتى اخر القرن الثاني الهجري دراسة في أصولها وتطورها، الدكتور علي البطل، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع 1981م
الصورة والبناء الشعري ، محمد حسن عبدالله ، مكتبة الإسكندرية ، مصر ، 1997
ضحى الإسلام، احمد امين دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، لبنان 2007 م
في مهب الشعر: مقالات ودراسات، د. نزار بريك هنيدي، ، منشورات اتحاد الأدباء، دمشق، 2003
المصطلح السردي في النقد الحديث ، احمد الخفاجي ، دار صفاء للنشر والتوزيع .
معجم مصطلحات نقد الرواية: د. لطيف زيتوني، ط1، دار النهار للنشر، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان ،2002 :172.
النقد الأدبي الحديث ، محمد غنيمي هلال ، دار الكتب العلمية ، مصر ، 2006
نقد الشّعر، قدامة بن جعفر، تح: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، مصر، ط٣ ، ١٩٧٨م

الرسائل والأطاريح الجامعية :

المعذب في الشعر العراقي الحديث ، لؤي العاني : أطروحة دكتوراه ، جامعة بغداد ، كلية التربية ابن رشد ، 2005 م

البحوث المنشورة :

الآخر في غزل الشعر العراقي 447- 547 هـ ، دراسة تحليلية، د. زينب فاضل أحمد سعيد محمد ، مجلة كلية التربية الأساسية ، الجامعة المستنصرية ، مج : 22 ، ع : 96 ، 2016